

# الفلسفة الثاني

علم الإنسان: تطوره  
وعلاقته بالعلوم الأخرى

---

obeikandi.com

# المبحث الأول

## في التعاريف (١)

إن هذا الكائن الفريد الذي اسمه الإنسان كان دائماً ولا يزال موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء؛ فمنذ قديم الزمان لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية، ولون البشرة، والعادات والتقاليد، والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة، وفي إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة اصطلاح على تسميته «بالأنثروبولوجيا». ولكن ما هي الأنثروبولوجيا؟ وما موضوعها، إذ إن لكل علم عادة مجموعة من الظواهر التي يعكف الباحثون على دراستها بالوصف والتحليل والتفسير.

تشير بعض الدراسات الأنثروبولوجية إلى أنه ربما تكون أفضل طريقة لتعريف الأنثروبولوجيا هي أن نقدم للقارئ فكرة عما يفعله الأنثروبولوجيون. وفي هذا الصدد كتبت الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية الشهيرة (مارجريت ميد) (١٩٠١-١٩٨٩) تقول: «نحن نصف الخصائص

---

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب: قصة الأنثروبولوجيا، تأليف د. حسن فهيم الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، ونشير إلى أننا قمنا بإجراء بعض التعديل (مثل الحذف أو الإضافة...) وللأمانة العلمية نشير إلى ذلك.

الإنسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الزمان وفي سائر الأماكن . ونحلل الصفات البيولوجية ، والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة ، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة ، كما نهتم بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجيا وتحليلها ، ونعنى أيضاً ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته . وبصفة عامة - فنحن الأنثروبولوجيين - نسعى لربط نتائج دراساتنا وتفسيرها في إطار نظريات التطور ، أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر .

إن التخصصات الأنثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها هي في ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد ، وهي التي تثير الانتباه وتعمل على الإبداع والتجديد ، هذا وتجدر الإشارة إلى أن جزءاً لا بأس به من عمل الأنثروبولوجيين يوجه نحو القضايا العملية في مجالات الصحة والإدارة والتنمية الاقتصادية ومجالات الحياة الأخرى» .

يعبر هذا النص ولا شك عن تصور الأنثروبولوجيين الأمريكيين بصفة عامة لأهم مجالات الأنثروبولوجيا ، والتي تعني في نظرهم دراسة الإنسان من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء . ويستخدم الأمريكيون مصطلح الأنثروبولوجيا الفيزيائية للإشارة إلى دراسة الجانب العضوي أو الحيوي للإنسان ، بينما يستخدمون مصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية ليعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان ، تدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم (أو حضارات ما قبل التاريخ) ، والتي يشار إليها بعلم الأركيولوجيا وتتناول

الأنثروبولوجيا الثقافية كذلك دراسة لغات الشعوب البدائية واللهجات المحلية، والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة، وذلك في إطار ما يعرف بعلم اللغويات، علاوة على ذلك يوجد مجالان دراسيان آخران ذوا أهمية كبيرة، وهما الأثنوغرافيا والأثنولوجيا وعلى الرغم من التداخل بين المصطلحين، إلا أن مصطلح الأثنوغرافيا يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات، والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. أما الأثنولوجيا فتهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الأثنوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية، من حيث أصولها وتطورها وتنوعها. وبهذا تشكل المادة الأثنوغرافية قاعدة أساسية لعمل الباحث الأثنولوجي، فالأثنوغرافيا والأثنولوجيا مرتبطتان وتكمل الواحدة منها الأخرى.

هذا هو معنى الأنثروبولوجيا ومجالات دراساتها الرئيسة في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما في أوروبا، فإن الوضع يختلف تماماً حتى من بلد أوروبي إلى آخر، ويرجع ذلك - بطبيعة الحال - إلى تباين الخلفيات الثقافية والمصالح القومية للدول الأوروبية، فبصدد كلمة الأثنوبولوجيا ذاتها يذكر الباحث الفرنسي (جان بواريه) أنها ظهرت أولاً في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعني دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان، وربما كان عالم الطبيعة الألماني (جوهان بلومينباخ) من رأي (بواريه) أيضاً - أول من أدخل

كلمة «الأنثروبولوجيا» في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه الذي صدر عام ١٧٩٥م بعنوان «عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر». ويذكر (بواريه) أيضاً أن الفيلسوف الألماني إيمانويل كان قد أشاع استخدام هذا المصطلح وبخاصة بعد صدور كتابه «الأنثروبولوجيا من منظور عملي» ومع أن إسهامه في دراسات التاريخ الطبيعي للإنسان كان محدداً للغاية إلا أنه كان مهتماً بقراءة مدونات الرحلة، كما أنه درس موضوع تصنيف السلالات البشرية. هذا ولا يزال استخدام كلمة الأنثروبولوجيا بمعنى «دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان» سائداً في أوروبا إلى حد كبير، إلا أن موضوعات الأنثروبولوجيا بهذا المعنى قد اتسعت وتنوعت لتشتمل على الدراسات المقارنة بين الإنسان والحيوان، ودراسة تنوع السلالات البشرية، والخصائص الوراثية للشعوب، علاوة على الدراسات المقارنة بين الإناث والذكور من حيث الصفات التشريحية والعمليات البيولوجية وصلة ذلك بتحديد الوظائف أو الأدوار الاجتماعية لكل نوع.

إن ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة «الأنثروبولوجيا الثقافية» اصطلاح الفرنسيون على الإشارة إليه بالأنثولوجيا، أو ثوغرافيا في بعض الأحيان، وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع. أما الإنجليز، فقد اختاروا تسمية أخرى، وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ونظروا إليها بعدد علماء قائماً بذاته، لا يدرج تحته أي من الأركيولوجيا أو اللغويات مثلاً. ويصف (إدوارد إيفانز بريتشارد) (١٩٠٢-١٩٧٣)، أحد رواد الأنثروبولوجيا

الاجتماعية الأوائل مهمة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها «تدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، نسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية وغيرها، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات. إن دراسات الأنثروبولوجيين البريطانيين المكثفة لكثير من النظم الاجتماعية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وإجراء المقارنات التحليلية بشأنها، ساعد على وضع نماذج نظرية لشرح أبنيتها، وتفسير وظائفها، ودورها في استمرارية الحياة المجتمعية وتماسكها. هذا وقد شكلت دراسات النظم ذاتها تخصصات فرعية، وبهذا خرج إلى الوجود ما يشار إليه مثلاً بأنثروبولوجيا القرابة والأسرة مثلاً، أو أنثروبولوجيا الدين، أو الأنثروبولوجيا الاقتصادية، أو أنثروبولوجيا النظم السياسية، وغير ذلك، وإن كانت جميعها تسير وفقاً للإطار العام لمفاهيم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومنهجها.

وإذا نظرنا إلى استخدام كلمة الأنثروبولوجيا في بلاد أوروبية أخرى نجد أنها تستخدم في ألمانيا مثلاً للإشارة إلى الدراسة الطبيعية للإنسان، بينما تستخدم كلمة أنثولوجيا لتشير إلى «علم الشعوب»، إلا أن الاتجاهات تتعدد في المدارس الألمانية الأنثولوجية، هناك مثلاً اهتمامات بالنواحي النظرية الفلسفية، وهناك أيضاً اهتمامات بالنواحي المادية في الثقافات

الإنسانية . وقد برز مؤخراً اتجاهٌ جديد نحو الدراسات الميدانية ، وإذا انتقلنا إلى الاتحاد السوفيتي «سابقاً» ومع معظم بلاد شرق أوروبا نجد أن مصطلح «الأثنوغرافيا» يشيع استخدامه ، ومن أهم مجالات الأثنوجرافيا لديهم دراسة التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدائية وبخاصة فيما يتعلق بالتحويلات التي تحدث في تلك المجتمعات عند تحولها إلى دول جديدة وما يتبعه من بروز للطبقات الاجتماعية . علاوة على ذلك يهتم الأثنوجرافيون السوفيت بدراسة المشكلات المتصلة بالجماعات العرقية ، والمشاعر القومية للأقليات ، كما يهتمون - بطبيعة الحال - بدراسة تطور المجتمعات الإنسانية في إطار النظرية الماركسية ونتائج البلشفيه التي حدثت في عام ١٩١٧ .

وكما هو الحال في أوروبا ، تتنوع مسميات الأثنوبولوجيا الثقافية وذلك وفقاً للاتجاه الأمريكي ، إلا أن اصطلاح «الأثنوبولوجيا الحضارية» غير شائع ، ويدعو الباحث الجغرافي والأثنولوجي (د . محمد رياض)<sup>(١)</sup> إلى الأخذ بمصطلح الأثنولوجيا بدلاً من استخدام أيٍّ من المصطلحات المزدوجة ؛ وذلك تسهيلاً واختصاراً . وفي الوقت نفسه - وعلى حد قوله - ترتبط الأثنولوجيا بدراسة الحضارة ، لدى الشعوب والمجتمعات المختلفة ، إن المهم - في رأيه أيضاً - هو «الاتفاق على المضمون ، وهو دراسة الحضارة بعناصرها المادية والمعنوية (غير المادية) ، في ارتباط واضح بالتفاعلات

(١) د . محمد رياض ، الإنسان ، دراسة في النوع والحضارة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٧ .

الداخلية للحضارة، والتفاعلات الخارجية مع الحضارات الأخرى المجاورة وغير المجاورة»<sup>(١)</sup>.

وضمن إطار تحديد اصطلاح الأنثروبولوجيا يشير الدكتور (شاكر سليم) في قاموس الأنثروبولوجيا الذي صدر في عام ١٩٨١ إلى مايلي «إن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً»<sup>(٢)</sup> وعلى الرغم من بساطة هذا التعريف وإيجازه إلا أنه قد يحسم لنا مشكلة تعدد فروع الأنثروبولوجيا فيحدددها في ثلاثة تخصصات رئيسة فقط، ، وهي الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الثقافية. وهو في ذلك يشير ضمناً إلى خاصية مميزة للأنثروبولوجيا وهي النظرة الشمولية في دراسة الإنسان. هناك علوم أخرى كثيرة - طبيعية كانت أو إنسانية - تدرس الإنسان من جانب أو آخر، ولكن الأنثروبولوجيا تشكل في نهاية الأمر منهجاً يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من جميع الجوانب؛ وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومتربط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري في الماضي والحاضر، ومن ثم يكون لديها القدرة أيضاً على استقراء أنماط الحياة المستقبلية.

وإلى جانب دراسة الأنثروبولوجيا للمجتمعات كافة كجزء من منظورها الشمولي يتجه الأنثروبولوجيون عند دراستهم لأسلوب حياة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا (عربي - إنكليزي)، جامعة الكويت، ١٩٨١، ص ٥٦.

مجتمع معين ، إلى الربط بين الجانبين المعنوي والمادية لما يدور في الحياة اليومية للناس ، وإبراز الكيفية التي ينظم بها الأفراد والجماعات وسائل معيشتهم ، والمحافظة على بقائهم ؛ لهذا لا تفحص الأنثروبولوجيا نظاماً أو نشاطاً معيناً إلا في إطار ترابطه وصلاته بالنظم الأخرى . وبالتالي أصبحت الدراسة الحقلية التي تقوم على الاتصال المباشر والمكثف بمجتمع الدراسة سمة أو ميزة أساسية في تقاليد العمل الأنثروبولوجي . ولعل من السمات أو الخصائص الأخرى التي تنفرد بها الأنثروبولوجيا هي الأخذ أيضاً بمنهج المقارنة الموسعة ، وهي في ذلك تختلف عن العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى في أنها تسعى في تعميماتها إلى مقارنة النظم أو أوجه النشاط الإنساني - موضع البحث - عبر الأماكن وعبر الأزمنة . ولقد استفاد الأنثروبولوجيون في تعميق هذا النوع من المقارنة ، مما حدث من تطوير لوسائل توثيق المادة وتحليلها باستخدام أدوات التكنولوجيا المتقدمة .

واستناداً إلى ذلك فإن كلمة (أنثروبولوجيا) هي اشتقاق لغوي من أصل يوناني إغريقي تتألف من مقطعين (إنثروبوس) أي الإنسان و (لوجوس) أي العلم أو الدراسة . أي أن المعنى اللفظي للاصطلاح هو علم الإنسان . «ولقد استطاع العلامة الإنكليزي (هادون) أن يتتبع تاريخ استخدام هذا الاصطلاح إلى الحضارتين الإغريقية والرومانية ، فقد لاحظ أن الفيلسوف الكبير (أرسطو) قد استخدم هذا الاصطلاح للإشارة إلى «الشخص الذي يتحدث عن نفسه» ، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف تماماً عن المعنى الحديث للاصطلاح وفي عام (١٥٠١) ظهر هذا الاصطلاح كعنوان لكتاب

للمفكر الذي تكلم فيه عن خصائص جسم الإنسان من الناحية التشريحية . . .»<sup>(١)</sup> وانطلاقاً من ذلك «يهتم هذا العلم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفرادهم ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم وكل ما ينتجونه سواء أكان مادة أم علاقة اجتماعية أم فكرة . وقد اهتم الأنثروبولوجيون الأوائل بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية، إذ اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الأخرى بخاصة المجتمعات الأوروبية، ويكمن تلخيص الأسباب التي دفعت الرعيل الأول من الأنثروبولوجيين إلى ذلك الاتجاه فيما يلي :

١- كان أهم ما يبحثون عنه هو اللغات والعادات الغربية التي تختلف وتتناقض مع لغات مجتمعاتهم الأوروبية وعادات هذه المجتمعات، وأصبح هذا تقليداً على مر السنين .

٢- يتميز علم الإنسان بالنظرة الكلية الشاملة أي المنهج الكلي التكاملي الذي يهدف إلى تحديد جميع عناصر الثقافة في مجتمع ما . . .»<sup>(١)</sup> .

---

(١) د. عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧، ص ٧ .

(٢) المصدر السابق، ص ٨ .